الحياة الطيّبة
السنة 21
العدد 36
شتاء- ربيع 2017 م
ملف العدد

سقوط وقيام -قراءة في النصوص المقدّسة (إر ٥٠:١-٢٠)-

د. المونسنيور بولس الفغاليّ

خلاصة المقالة:

تقدّم هذه المقالة قراءة في نماذج من النصوص المقدّسة (إر 50: 1–20)؛ من خلال قراءة الأقوال النبويَّة على الأمم؛ لترسم أمامنا مصير بابل الماضية إلى الخراب وإسرائيل (أي يهوذا وإسرائيل معًا) التي يعيد الربُّ بناءها ويُرجع الشعب إلى أرضه؛ وذلك من خلال مقارنة بين ما ورد في كلّ من: النصَّ الإرميائيّ في العبريَّة (النصّ الماسوريّ)، واليونانيَّة (السبعينيَّة)، والسريانيَّة (البسيطة). والخلوص إلى أنّ مردّ الاختلاف بين هذه النصوص الثلاثة هو إفهامنا أنَّ كلمة الله ليست حرفًا جامدًا ميتًا، بل هي حيَّة بحياة شعب الله.

فإذا كنَّا نؤمن بأنَّ الربَّ هو الإله الحيّ، فكلمته تكون حيَّة. فلم تنزل كلمة الله قطعة واحدة، في لغة محدَّدة هي العبريَّة أو اليونانيَّة أو السريانيَّة أو العربيَّة... فالله الذي يضع معرفته في القلوب يسمح للقلوب أنْ تكتبها في زمن معيَّن وفي مكان معيَّن. وبما أنَّ البشر كتبوها، فقد صارت كلمة بشريَّة نحاول أنْ نقرأها، نشرحها، نفهمها في الإطار الذي كُتبت فيه. ولكنْ إذا تبدّل الإطار، فلن يتطوّر المعنى؛ وإنَّما يغتني، فيجعل الكاتب هذا النصَّ «الإلهيّ» يغذِّي المؤمنين في أيَّامه. فشارح الكتاب المقدَّس ليس عالم آثار، بل همُّه أنْ تصبح كلمة الله حاضرة، حيَّة، فاعلة، في هذا الآن وفي هذا المكان.

إنّ عمق النصّ لا يتبدَّل؛ لأنَّه في الأصل وحي من الله لأحد أنبيائه. لكنَّ تطبيقه على السامعين يأخذ منحًى آخر؛ فكلمة الربّ هي هي في الماضي واليوم وكلَّ يوم؛ لأنَّها في النهاية شخص يسوع المسيح الذي «هو هو أمس واليوم وإلى الأبد».

كلمات مفتاحيّة:

الكلمة، الربّ، الكتاب المقدّس، النصَّ الإرميائيّ، النصّ الماسوريّ، اليونانيَّة السبعينيَّة، السريانيَّة البسيطة، بابل، إسرائيل، شعب الله، التفسير، الفهم، ...

مقدِّمة:

أُذِلَّتْ حنَّةُ امرأةُ أَلْقَانَةَ (1 صم 1: 1)؛ لأنَّها كانت عاقرًا، لا تحمل ثمرًا لزوجها ولا لشعبها، واعتبرت حياتها فشلًا. ولكنَّها اتَّضعت أمام الإله القدير، بعد أنْ بكت (آ8)، وأفرغت قلبها أمام الربّ (آ15)، فاستجابَ لها صلاتها وأعطاها ابنًا دعته صموئيل؛ أي اسم الله (ش م و إ ل). عندئذٍ أنشدت: «فرح قلبي بالربّ، ارتفع رأسي بالربّ... ابتهجت بخلاصك... قسيّ الجبابرة تحطَّمت والضعفاء تمنطقوا بالقوَّة. الذين شبعوا في الماضي يعملون الآنَ لقاء أجر ليكون لهم الخبز، وأمّا الجياع فكفاهم الربّ. العاقر ولدتْ سبعة بنين، وكثيرة البنين ذبلَتْ» (1 صم 2: 1ي). تلك هي طريقة الربّ في العمل: «ينزل المتكبِّرين عن الكراسي ويرفع الوضعاء، يشبع الجياع خيرًا ويعيد الأغنياء فارغين»، ذاك ما قالت مريم وهي تنشد الله العظيم الذي صنع فيها أعمالًا وأيَّ أعمال! (لو 1: 52-53).

أنشدت حنَّة بعد أنْ نالت صموئيلَ الذي يرفع شعبه، ويعدُّ الطريق للملكيَّة. ومريم «عظَّمت» الربَّ الذي أعطاها أنْ تحمل مخلِّص العالم. ولماذا لا ينشد إرميا أو أحد تلاميذه نهاية الحالة التعيسة التي يعيشها شعبه في ذلِّ المنفى، ويعلن عدالة الله الذي يجازي كلَّ إنسان (وكلَّ شعب) بما فعل؟ أما تستحقُّ بابل أنْ تعاقَب وهي التي سحقت الشعوب

والأمم، وأفرغت المدن من نخبتها الفكريَّة والروحيَّة والحربيَّة والاقتصاديَّة؛ لتبقيَ فقط شعب الأرض (ع م هـ أ ر ص) ذاك المتعلِّق بالأرض، الذي يعمل من أجل المحتلّ، فيدفع الضرائب، ويسخَّر ويسخَّر بقدر ما يشاء ملك بابل. فهذا قد تعلَّم كثيرًا من ملك آشور الذي سبقه إلى هذه البلاد.

انطلاقًا من إر 46، نواصل قراءة الأقوال النبويَّة على الأمم، بدءًا بمصر (ف 46)، وصولًا إلى الفلسطيِّين (ف 47)، ثمَّ إلى موآب (ف 48)، وعمون وأدوم ودمشق والعرب وعيلام (ف 49). أمّا بابل، فيكون لها فصلان كبيران (110 آيات من الشعر ومن النثر)، لكنّنا نقرأ فقط إر 50 (في السبعينيَّة 27): 1-20 في أربع لوحات، وذلك بعد مقدِّمة قصيرة: بابل، إسرائيل، بابل، إسرائيل.

ولكنْ قبل الدخول في هذه المقابلة التي ترسم أمامنا مصير بابل الماضية إلى الخراب وإسرائيل (أي يهوذا وإسرائيل معًا) التي يعيد الربُّ بناءها ويُرجع الشعب إلى أرضه، نقدِّم النصَّ الإرميائيّ في العبريَّة (النصّ الماسوريّ) واليونانيَّة (السبعينيَّة) والسريانيَّة (البسيطة)؛ لأنَّ الاختلاف بين هذه النصوص الثلاثة يُفهمنا أنَّ كلمة الله ليست حرفًا جامدًا ميتًا؛ بل هي حيَّة بحياة شعب الله.

أولًا: قراءة إر 50 (27): 1-20

النصّ الماسوريّ (مس) 50	نصّ السبعينيَّة(سب) 27	النصّ السريانيّ(سر) 50
1 - الكلمة التي تكلَّم يهوه على بابل إلى أرض كسديم بيد إرميا النبيّ	كلمة كيريوس التي قال على بابل	الكلام الذي قال الربُّ على بابل وعلى أرض الكلدائيِّين بيد إرميا النبيّ

2 - أخبروا في الأمم، وارفعوا رايــة، وأسمعوا، لا تخفوا، قـولـوا: أُخــذت بابل، خزيَ بيل، انسحق مردوخ، خزيَتْ أوثانُها، انسحقت أوثانُها.	بـشِّـروا في الأمــم واجعلوا مسموعًا، لا تخفوا، قولوا: أُخــذت بـابـل، خــزيَ بيل، مــردوخ الثابتُ الشهوانيُ أُسلم.	أخبروا في الأمم (وأسمعوا) وارفـعـوا رايـــةَ، لا تخفوا، قولوا: أُخـذت بابل، سقطَ بيل، انخفر مـردوك، خزيَتْ أوثانُها، انسحقت (تحطَّمت) أصنامها.
3 - لأن صعدت عليها أمَّة من الشمال؛ هي تجعل أرضَها دهشًا ولا يكون ساكن فيها من إنسان وحتَّى بهيمة، شُرّدوا (ن د و) مضوا.	لأنَّ أمَّة صعدت من الشمال، تركض إلى الأرض لإزالتها، ولن يكون ساكنٌ فيها من إنسان ومن بهيمة.	لأن صعد عليها شعب من الشمال هو يجعل الأرض هـذه خربة ولا يكون فيها سـاكـن مـن إنـسـان وحتَّى بهيمة. شُرّدوا (ن د و) ومضوا.
4 - فـي الأيَّـــام تلك وفي الوقت ذلك نأمة (همسة) يهوه: يأتون، بنو إسرائيل هم وبنو يهوذا معًا، سيرًا وبكاء. ويهوه إلهَهم يطلبون.	في تلك الأيَّـــام وفـي ذلك الوقت، أبناء إسرائيل يأتون وأبناء يهوذا معًا يسيرون وباكين. ويطلبونَ كيريوس إلههم.	في الأيَّام تلك، وفي الوقت ذلك، قائلٌ الـربّ يأتون بنو إسرائيل وهم وبنو يهوذا معًا سائرون وباكون. والربَّ إلههم طالبون.
5 - صهيون طريقًا يسألون، إلـى هنا وجوهُهم، تعالوا فينضمُّوا (ل و ه) إلى يهوه بعهدٍ أبدٍ لا يُنسى.	يسألونَ عن الطريق بحيث يمضون إلـى صهيون؛ لأنَّ هـذا الطريق إلـى وجههم، ويمضون ويهربون إلى الربِّ إلههم لأجل ملجإ.	على طرقات صهيون يسألونَ بوجوههم تـعـالـوا ننضمُّ (نترافق) إلى الربّ بعهدٍ أبدٍ الذي لا يُنسى.
6 - ضأنًا بائدة كانوا شعبي، راعوهم (رعاتهم) أتاهوهم على جبال، ردُّوهم (مرتدُّون) من جبل إلى تلَّة، ساروا، نسوا مربضَهم.	فلا يُنسى العهد الأبديّ. شعبًا بائدًا كـان شعبي، رعاتهم أضـاعـوهـم عـلـى الجبال بدَّدوهم فراحوا من جبل إلى تلٍّ ونسوا مربضهم.	مثل غنم بائدة كانوا معي، رعاتهم أضـلُّـوهـم، وعلى الجبل بدَّدوهم، من جبل إلى تلَّة سـاروا، ونسوا مربضهم (حظيرتهم).
7 - كلُّ واجديهم أكلوهم، وخصومهم قالوا: لا نأثمُ؛ لأجل أن خطئوا ليهوه، مأوى برّ ورجاء آبائهم يهوه.	كلُّ الذين وجدوهم أكلوهم. أعـداؤهـم قالوا: لا نتركهم وحدهم؛ لأنَّهم خطئوا إلى كيريوس ذاك الـذي جمع آبائهم له مرعى برّ.	كـلُّ مـن وجـدهـم أكلهم، وأعداؤهم قائلون: لا نتركهم؛ لأنَّهم خطئوا للربّ ولدارته البارَّة، ورجاء آبائهم هو الربّ.

8 - اشـردوا من وسط بابل ومن أرض كسديم، اخرجوا (خرجوا) وكونوا كتيوس أمام ضأن.	اهربوا من وسط بابل ومن أرض الكلدائيِّين، اخرجوا.	اهربوا من وسط بابل ومن أرض الكلدائيِّين، اخرجوا وكونوا كتيوس أمام خراف.
9 - لأنَّ ها أنا موقظ ومصعد على بابل جماعةَ أمم عظيمة من أرض الشمال، فيصطفُّون عليها من هناك تُؤخَذ. سهامُه كجبَّار مُفلح لا يعود فراغًا.	فأنا أوقظ على بابل تجمُّع الأمـم مـن أرض الشمال فيصطفُّون عليها وهي تؤخَذ مثل سهم محارب لا يعود فارغًا.	لأنَّ ها أنـا محرِّك ومصعد أنا على بابل جماعة شعوب عظيمة من أرض الشمال، فيصطفُّون عليها ومن هناك تؤخَذ. سهامه مثل رجل مفلح فلا عائد بفراغ (أو: فراغًا).
10 - وتكونُ كسديم غنيمة كلُّ مغتنيمها يشبعون، نأمة يهوه.	وتكون الكلداي سلبًا: كلُّ من يسلبها يشبع.	وتـكـونُ أرضُ الكلدائيِّين للسلب وسالبوهم كلُّهم يشبعون، قائلٌ الربّ.
11 - لأن تفرحونَ (تفرحين)، لأن تغتبطون (تغتبطين) يا ناهبي ميراثي، لأن تنتشرون (تنتشرين) كنعجة دائسة وتـصـهـلـون (وتـصـهـلـيـن) كمقتدرين.	لأنَّكم تفرحون وتغتبطون حين يُنهَب ميراثي، لأنَّكم تهلِّلون مثل عـجـول في المرعى وتدفعون العجول بقرونكم.	لأن تفرحون، لأن تغتبطون رأس ميراثي، وتغتبطون مثل عجول معلوفة وترقصون مثل ذكور الغنم.
12 - خـزيَـتْ أمُّكم جـدًّا، خفرَت والدتُكم، ها آخرة أمم برِّيَّة يباس وبادية.	أمُّكم خزيَتْ جدًّا، أمُّكم التي تحمل ازدهاركم خجلت، هي آخر الأمم؛ بادية.	خجلت أمُّكم جدًّا، وخفرت والدتكم، ها آخـرة شعوب مثل برِّيَّة خربة قفرة.
13 - مـن سخط يـهـوه لا تسكن، فتكون قفرًا كلُّها. كلُّ عابرٍ على بابل يدهش ويصفرُ على كلِّ ضرباتِها.	بـسـبـب غـضـب كـيـريـوس لن تُنسكن بعدُ؛ بل تكونُ قفرًا وكلُّ من يمرُّ عبر بابل يدهشونَ ويصفرُون أمام ضربتها.	من سخط الـربّ لا تسكن وتكونُ قفرًا كلُّها. وكلُّ من يعبر عـلـى بـابـل يدهش ويصفرُ على ضرباتها كلِّها.
14 - اصطفُّوا على بابل من حـول يا كل دائسي (درك – مدرك) قوس، ارموا عليها لا تشفقون على سهم؛ لأنَّ ليهوه خطئت.	اصطفُّوا على بابل من حولها يا كلُّ من يدوس القوس، لا توفِّروا سهامكم.	اصطفُّوا على بابل كلّ الذين عارفون بالقوس، ارموا عليها لا تشفقون على السهام؛ لأنَّ للرب خطئت.

اهتفوا عليها من حول: أعطت يدها، سقطتْ أركانها (أسسها)، هرسَتْ أسوارها؛ لأنَّ انتقام يهوه هي، انتقموا منها، كما صنعَتْ اصنعوا لها.	سيطروا عليها، يداها ضعفنا، أسسُها سقطت، وسورها انكسر، هو انتقام من الله، انتقموا منها، كما عملَتْ اعملوا لها.	اهتفوا عليها من حواليها: أعطت يدًا، سقطتْ أسسُها، هرسَت أسوارها؛ لأنَّ مجازاة الربّ انتقِموا منها كما صنعت اصنعوا لها.
16 - اقطعوا زارعًا من بابل وماسك منجل في وقت حصاد من وجه السيف الجائر، رجل إلى شعبه يتوجَّهون، ورجل إلى أرضه يهربون.	دمّروا الزرع كليًّا من بابل وماسك المنجل في وقت الحصاد من وجه السيف الهلينيّ، فيعود كلُّ واحد إلى شعبه، ويهربُ كلُّ واحد إلى أرضه.	وأوقدوا الزارع من بابل وماسك منجل وفي وقت الحصاد من أجل السيف التعيس، رجل لشعبه يتوجَّهون، ورجل إلى أرضه يهربون.
17 - شاة مشتَّتة إسرائيل، أسُدٌ طردَت الأوَّل أكله ملكُ آشور، والآخر جرفَه (هرسه) نبوخذ نصّر ملك بابل.	خروف ضائع إسرائيل، الأسُود دفعته، الأوَّل أكله ملك آشور، والآخر حطَّم ملك بابل عظامه.	شاة ضائعة إسرائيل، أسُدٌ ضيَّعتهم، الأوَّل أكله ملك آشور، وهذا الآخر قويَ عليه نبوخذ نصَّر ملك بابل.
18 - لذلك هكذا قال يهوه صباؤوت إله إسرائيل: ها أنا متفقِّد (ف ق د) على ملك بابل وعلى أرضه، كما افتقدت على ملك آشور.	لذلك يقول كيريوس ها أنا أنتقم من ملك بابل وعلى أرضه كما افتقدتُ ملك آشور.	لذلك هكذا قال الربُّ القويّ إله إسرائيل ها أنا مفتقد على ملك بابل وعلى أرضه كما افتقدتُ على ملك آشور.
وأُرجِعُ إسرائيلَ إلى مأواه فيرعى الكرمل وباشان، وفي جبل أفرائيم وجلعادَ تشبعُ نفسُه.	وأصلح إسرائيل إلى مرعاه فيرعى على الكرمل وفي جبل أفرائيم وفي جلعاد، فتشبع نفسه.	وأرجع إسرائيل إلى منزلهم (دارهم)، فيرعى في الكرمل وفي متنين وفي جبل أفرائيم وفي جلعاد، وتشبع نفسه.
20 - في الأيَّام تلك وفي الوقت ذلك نأمة يهوه: يُطلَب ذنبُ إسرائيل وليس هو، وخطايا يهوذا فلا تُوجَد؛ لأن أغفر لمن أُبقي.	في تلك الأيَّام وفي ذلك الوقت يطلبون ذنب إسرائيل فلا يُوجَد، وخطايا يهوذا فلا يجدون؛ لأنِّي أكون رحومًا لهم وأبقيهم.	وفي الأيَّام تلك وفي الوقت ذلك قائل الربّ القدير يُطلَب ذنب إسرائيل وليس هو وخطيئة يهوذا ولا تُوجَد؛ لأن أغفر للبقيَّة التي أبقيَتْ منهم.
21 - وعلى أرض مراتيم أصعد.	في الأرض يقول كيريوس.	اصعدوا على الأرض.

ما نلاحظه في هذه المقابلة: اقتراب النصّ السريانيّ من العبرانيّ؛ فهو يكاد يكون نسخةً عن النصِّ الأصليّ. في آ2 نقرأ في العبريَّة: خزي بيل (הביש)، ونقرأ في السريانيَّة: سقط بيل (ܢܦܠ).

في آ6، نقرأ في العبريَّة: فعل ردّ (שובבום). وفي السريانيَّة: بدَّدوهم (ܒܕܪܘ ܐܢܘܢ).

في آ11 نقرأ في العبريَّة: كعجلة دائسة (דשה)؛ أي تدوس القمح. أمّا السريانيّ فقال: ܥܓܠܬܐ (العجلة) ܕܡܦܛܡܐ (المعلف)؛ أي عجلة معلوفة (أو: «فُطمَت»).

في آ14 نقرأ في العبريّ: يا كلّ دائسي (דרכי). وفي السريانيَّة: عارفون (ܝܕܥܝܢ). ونتذكَّر في العربيَّة فعل أدرك.

في آ16، اقطعوا (כרתו) في العبريَّة. وفي السريانيَّة: ܘܐܘܩܕܘ (وأوقدوا). ولهذا تحدَّث اليونانيّ عن «الزرع»σπερμα sperma.

في آ19، اعتادت البسيطة أن تترجم «باشان» הבשן بلفظ ܡܬܢܝܢ (متنين).

وفي آ20 أضاف السريانيّ على יהוה (ܡܪܝܐ، الربّ) لفظ ܚܝܠܬܢܐ (القويّ)؛ وهو ما يقابل العبريّ صباؤوت.

توافقٌ في الألفاظ مرَّات عديدة؛ لأنَّنا أمام لغتين ساميتين الواحدة منهما قريبة من الأخرى. وتوافقٌ في بنية الجملة، مع تبديلات طفيفة من أجل إيضاح المعنى. ولكنَّ الأمر يختلف اختلافًا كبيرًا في ما يخصُّ المقابلة مع السبعينيَّة اليونانيَّة.

ففي آ1، صارت الجملة العبريَّة الطويلة (الكلمة التي تكلَّمها يهوه على بابل إلى أرض كسديم، أو البابليِّين، بيد إرميا النبيّ) قصيرة جدًّا: «كلمة الربّ الذي تكلَّم على بابل.» وهي بشكل عنوان λογος κυριου ον ελαλησεν επι βαβυλονα، وهو توسيع للأصل العبريّ الذي نقلته اليونانيَّة وكان: דבר יהוה אשר דבר אל בבל، وهي كلمة أرسلت إلى بابل epi.

وفي آ2، غابت من اليونانيَّة: «وارفعوا راية وأسمعوا»، كما غاب: «خزيت أوثانها، انسحقت أصنامها».

وفي آ4: «نأمة يهوه» (أي: وقال الربّ)، ولا وجود لهذه العبارة في السبعينيَّة، كما اعتبر بعضهم أنَّ عبارة «هم وبنو يهوذا معًا» نافلة. نتذكَّر هنا أنَّ الشمال راح إلى المنفى سنة 722-721، وأنَّ الجنوب (أو يهوذا) مضى سنة 587-586، أي إنّ الأوَّلين راحوا إلى آشور؛ إلى شمال بلاد الرافدين، فيما راح الآخرون إلى الجنوب؛ إلى بابل. ومن هنا، نرى أهمِّيَّة ذكر المملكتين اللتين ستعودان «معًا» יחדו: «الاثنان يصيران واحدًا». ܐܟܚܕܐ: مثل واحد. ونشير هنا إلى إضافة في السبعينيَّة لصفتين أعطيتا لمردوخ: απτοητος – τρυφερα.

وفي آ9 يقول العبريّ: «موقظ ومصعد» فيستغني اليونانيّ عن «ومصعد»، ثمَّ قرأ العبريّ: «جماعة أمم عظيمة» (وتبعه السريانيّ). أمّا اليونانيّ، فقال: συναγωγας εθνων؛ ما يقابل العبريّ: קהלי גוים: جماعات أمم.

في آ10، استغنى اليونانيّ عن נאם (قال الربّ).

وفي آ11، «كعجلة دائسة» (العبريّ). وفي اليونانيّ: «تهلِّلون مثل عجول في المرعى». أضاف اليونانيّ مع السريانيّ لون الفرح والنشيد ولم يكتفِ بأنْ تنتشر العجول. ونشير هنا إلى أنَّ דשה تعني الحشيش والكلأ، بحيث نستطيع أنْ نترجم أيضًا: عجلة الكلإ أو المرعى.

في آ12 نقرأ «ها» أو «انظر» הנה، وقد ترك اليونانيّ هذه الأداة.

وفي آ14: «لأنَّها خطئت إلى الربّ»، وهي كذلك في السريانيَّة، لكنّها غابت في اليونانيَّة.

في آ15، يتَّفق العبريّ مع السريانيّ ليقولا «هتفوا» (הריעו في العبريَّة وفي السريانيَّة)، فلماذا قال اليونانيّ: تفوَّقوا، سيطروا κατακροτησατε؟ أتُرى أخذ معنًى آخر للفعل רוע؛ أي: روَّع،

أساء؟ وترك اليونانيّ «من حول»، كما في العبريّ والسريانيّ.

في آ16، قال العبريّ: السيف الجائر، وقال السريانيّ (ܚܪܒܐ)؛ أي السيف التعيس. أمّا اليونانيّ فقد تحدَّث عن العالم اليونانيّ ελληνικης؛ وهو سيف خاصّ من العالم الهلِّينيّ.

وفي آ17، ترك اليونانيّ «نبوخذ نصَّر»، كما ترك في آ18 «يهوه صباؤوت، إله إسرائيل».

في آ19، كان كلام عن الكرمل وباشان (العبريّ والسريانيّ صحَّح «ܒܫܢ»). أمّا اليونانيّ فما أشار إلى «باشان».

وفي آ20، ترك اليونانيّ: נאום יהוה؛ أي: قال الربّ.

منذ عقود من الزمن والجدال قائمٌ بالنسبة إلى نصِّ السبعينيَّة، ويعتبر الأب بوغارت وباحثون عديدون أنَّ النصَّ العبريّ الذي أُخذت عنه السبعينيَّة هو أقدم من النصّ الماسوريّ؛ فالحذف غير معقول، وأمّا الإضافات فواضحة؛ وهي تجعل النصَّ ثقيلًا بعض المرَّات، فيخسر بعض إيقاعه. أمّا عمانوئيل طوب الأستاذ في جامعة أورشليم، فيشدِّد على أنَّ النصَّ الماسوريّ هو الأقدم، وأنَّ النصَّ الذي أَخَذَتْ عنه السبعينيَّة أوجز الماسوريّ. ولكنْ تبقى العاطفة مسيطرة في الموقف الثاني؛ كما بُيِّن من محاضرة أعطيَتْ في لوفان (بلجيكا)، حيث طلبَ المحاضرُ الأخذ بعين الاعتبار شعبًا مرَّ في «الشواء» النازيّ.

ثانيًا: أُخِذَت بابل:

بعد المقابلة بين النصوص، نعود إلى «الشخص» الأوَّل في ف 50-51: بابل. يبدأ المقطع مع لفظ «كلمة» דבר. لها شخصيَّتها؛ وكأنَّها استقلَّت عن إرميا. وهذا ما نكتشفه في ف 36. ما كان باستطاعة إرميا أنْ يأتي إلى الهيكل ويُلقي كلامه. ما هذا النبيّ الذي يحمل الكلمة -التي هي في أحشائه مثل نار مضطرمة- لا يستطيع أنْ يعلنها. فمتى كان النبيّ يسكت! ماذا حصل؟ دعا الربُّ إرميا لأنْ يكتب في درْجٍ ما يريد أنْ يوصله إلى

الشعب. في مرحلة أولى، قرأ باروك ما كُتب في الدرج على الشعب ثمَّ على العظماء. ولكن «أفلتت» الكلمة من يد باروخ، وهو الذي لا يستطيع أنْ يمضي إلى الملك، وقرأها «يهوديّ في أذنَي الملك».

هذه الكلمة يرسلها الله ولا تعود إليه؛ إلاَّ بعد أن تُتمّ ما أرسلت فيه. في هذا المجال نقرأ إش 55: 10-11: «كما ينزل المطر والثلج من السماء ولا يرجعان إلى هناك، بل يرويان الأرض ويجعلانها تلد وتُنبتُ وتعطي زرعًا للزرع وخبزًا للأكل، هكذا تكون كلمتي التي تخرج من فمي؛ هي لا ترجع إليَّ فارغة، بل تعمل ما أُمرت به وتنجح في ما أرسلتها له»، فالكلمة التي أرسلت إلى بابل لا تخضع للنبيّ، بل النبيُّ يخضع لها.

«الكلمة» شخص يتكلَّم، ونحن، أبناء العهد الجديد، نرى -هنا- إشارة إلى من هو الكلمة: يسوع المسيح. وهي تمضي «إلى» بابل، «إلى» أرض الكلدائيِّين؛ فبابل سوف تسمع، والأرض أيضًا. بابل تلك المدينة العريقة وذات التاريخ الطويل، وصلت إلى الذروة الحربيَّة في إثر الآشوريِّين الذين تفكَّكت دولتهم سنة 628ق.م. وأعلن نبوفلاسر نفسه ملكًا. وخلَفَه ابنُه نبوخذ نصَّر (604-562) الذي انتصر على المصريِّين سنة 605 في كركميش، فانفتحت أمامه الطريق إلى الشرق الأدنى؛ وصولًا إلى مصر. وامتدَّ العنفوان حتَّى سنة 539 حتَّى أتى كورش الفارسيّ إلى بابل ودخلها مسالمًا. ولكنَّها ثارت سنة 486-485، فهدمَتْ أسوارها وسُلبت معابدها ونهبت، فأضحت قاعًا صفصفًا. تلك هي الصورة التي رسمها إرميا أو أحد تلاميذه.

لقد بدت هذه الكلمة مثل «درج» حملها النبيُّ وأوصلها، لا إلى بابل فقط؛ بل إلى بلاد الكلداي، التي دُعيَتْ «كسديم»؛ ربَّما بالنسبة إلى القبائل الكاسيَّة التي نزلت من جبال زاغروس، وامتدَّ حكمها من القرن الثامن عشر ق.م. حتَّى إنليل -نادين- أخي (1157-1155). أمّا كلداي، فهي تلك الرقعة الجغرافيَّة الواسعة التي أقام فيها الكلدائيُّون، وهم شعب سامٍ عرفوا حياة

البداوة قبل أن يقيموا إلى الجنوب من بابلونيا.

قولان يتوجَّهان إلى بابل. الأوَّل (50: 2-3) يتحدَّث عن بابل، عن بيل ومردوك وسائر الأصنام. كلُّ هذا يصبح كلا شيء.

2. **أَخبِروا في الشعوب**
أسمِعوا وارفعوا راية
أسمعوا ولا تُخفوا
قولوا:
أُخذَتْ بابل، خزيَ بيل
انسحق مردوك
انكشفت أوثانها
انسحقت أصنامها.

3. **صعدت عليها أمَّة،**
(صعدت) من الشمال
جعلت أرضها دهشًا
فلا يكونُ ساكنٌ فيها
من الناس والبهائم،
تشرَّدوا ومضوا.

أخبروا، أعلموا الناس، أسمعوا الجميع، لا تخفوا الخبر. ومع السبعينيَّة: بشِّروا، احملوا بشرى حلوة. هذا ما يجب أن يعرفه الشعب الذي ذاق الأمرَّين من البابليِّين. ها هو العقاب آتٍ بحيث لا يبقى شيء من هذه المدينة التي ترفَّعت، تكبَّرت على الله، فصارت الجنائن المعلَّقة فيها إحدى عجائب الدنيا السبع. ومَن الذي قام بهذا العمل الجميل؟ الذين «جُعلوا» مثل قطيع غنم من المدن التي احتلَّها البابليُّون.

«أخذَتْ»، كأنَّه ما أراد أن يحدِّد «الملك» الذي أخذها. نحن نعرف من التاريخ من احتلَّ بابل ومن دمَّرها، ولكنَّ صيغة المجهول تدلُّ في النهاية

على الله. أَخذتُ المدن، فأُخذت، دَمَّرتُ، فدُمِّرت.

واعتبر الكلدائيُّون أنَّ آلهتهم أقوى من الربِّ الإله: «بيل» أوَّلًا. في العبريَّة בל بيل هو السيِّد، بينما هو في اللغة الأكاديَّة يقابل بعل الذي عُرف لدى الساميِّين منذ الألف الثالث ق.م. وذُكر في إر 51: 44 («أعاقب بيل في بابل»)، وفي إش 46: 1 («جثا بيل، انحنى نبو...»)؛ با 6: 40 (أو: رسالة إرميا: «إذا رأوا أبكم يقدِّمونه إلى الإله بال، أو بيل، ويطلبون منه أن يعيد إليه النطق»)؛ دا 14 (بال والتنِّين). أُعطيَ اسم «بيل» لعدد من الآلهة، مثل نبو وغيره. ولكنَّه أعطي بشكل خاصّ لمردوك، كما هو الأمر هنا، في موازاة شعريَّة: «خزي بيل، انسحق مردوك».

«م ر د ك» في الماسوريّ: מרדכ Μεροδακ ، وفي اليونانيَّة μαροδαχ ، وفي السريانيَّة ܡܪܘܕܟ، هو الإله الساميّ في بابل، ومنذ حمورابي الإله الوطنيّ في بابلونيا كلِّها، في القرن الثامن عشر. هو إله الآلهة، والملك على جميع الآلهة، وقد كتب معنى اسمِه بشكل نصف إديوغرافيّ δAMAP.YTY؛ أي عجل الشمس. هو سيِّد المعارف السحريَّة، وقد نال في ملحمة الخلق خمسين اسمًا في تعداد صفاته. لا يُذكر اسمُه في العهد القديم سوى مرَّة واحدة، هنا. ولكنْ في حصار أورشليم وسقوطها سنة 587-586 يُشار إلى أنَّه أقوى من يهوه، الربِّ الإله؛ لأنَّه احتلَّ مدينته، ودمَّر هيكله، وقتل كهنته. وهذا ما جعل حزقيال الربَّ يخرج من المدينة قبل أن تسقط، وينتظر الماضين إلى المنفى على الجبل الشرقيّ لكي يرافقهم (10: 1ي)، على أن يعود مع العائدين (43: 1) بعد أن يكون دُمِّر مردوك.

نتذكّر -هنا- أنَّ العبرانيِّين هزئوا من مردوك وشوَّهوا اسمه، فصار «نمرود» أي ذاك المتمرِّد الذي حاول أن يطال الله بسهامه، وقد يكون ذلك أساس بنائه لمدينة بابل وبرجها، للوصول إلى السماء وإلى عرش الله.

وتُذكر الأوثان עצביה، ثمَّ الأصنام גלולה. أمّا اللفظ الأوَّل فهو يرتبط

بالتعب والوجع؛ وخصوصًا بالغضب. وأمّا الثاني، فهو يدلُّ على شيءٍ محتقر، وفي النهاية على الخراء، وهو لفظ نقرأه مرارًا عند حزقيال: «أطرح قتلاك أمام أصنامك» (6: 4)، «سألقي جثثكم أمام أصنامكم» (5آ)، «تتحطَّم أصنامكم» (6آ)، «وراء أصنامهم» (9آ). «يكون قتلاهم بين أصنامهم» (13آأ)، «بخورًا يرضي أصنامهم» (13آب).

وقد قرأنا هنا فعلين הבישו؛ أي خزيت، ثمَّ חתו؛ أي انسحقت، وفي السبعينيَّة نعرف أنَّ بيل ومردوخ «سلِّما» إلى الفاتح، فهو يحوِّل الذهب والفضَّة إلى آنية أخرى.

وما الذي حصل؟ «أمَّة» أو «شعب»؟ هو حصار للمدينة مع فعل «صعد» ليكونَ المحتلّ على مستوى الأسوار. ومن أين هو آتٍ؟ من الشمال. إذا نظرنا إلى الجغرافيا، فالعدوُّ الآتي على بابل، أي الفرس، يأتي من الجنوب الشرقيّ؛ ولهذا، فعبارة «الشمال» هي بشكل استعارة، استعملت بشكل خاصّ بالنسبة إلى أورشليم. فنتذكَّر بداية نبوءة إرميا، وما رأى ذاك النبيّ، حيث قال له الربّ: «ماذا أنت راءٍ؟» فأجاب إرميا: «إنِّي أرى قدرًا... ووجهها من جهة الشمال». فقال الربّ: «من الشمال ينفتح الشرُّ على كلِّ سكَّان الأرض». (إر 1: 13-14). فكما أتى «الخراب» على أورشليم من «الشمال»؛ كذلك يكون وضعُ بابل، والنتيجة أنّ الخراب لا يُبقي «إنسانًا ولا حيوانًا».

ذاك كان القول الأوَّل الموجَّه إلى بابل، سواء أسمعت أم لم تسمع، إلاَّ أنَّ العائشين في المنفى البابليّ أو الذين لبثوا في أورشليم سوف «يرون» بعيونهم، أنَّ ذاك الذي خلَّص آباءهم من عبوديَّة مصر، سوف يخلِّصهم من عبوديَّة بابل، سواء في المنفى، حيث المسبيُّون يشتغلون في الحقول لفائدة أسيادهم، أم في أرض الربِّ مع الجزية التي يؤدُّون.

والقول الثاني (50: 8-16) يدعو الناس إلى الهرب لما سيحصل لتلك «الأمّ» التي اعتادت أنْ تطعم أولادها، غضبَ الربُّ عليها لأنَّها خطئت، وهو الربُّ يدعو عليها الأعداء؛ بحيث يصنعون بها كما هي صنعت بالأضعف

منها. وبما أنَّ بابل دُمِّرت يستطيع الشعوب التي سباها البابليُّون أنْ يعودوا إلى بلدانهم.

«اهربوا» (آ8). حين راح المنفيُّون من أورشليم كانوا مثل قطيع، وها هو دور سكَّان بابل. بدا العدوّ وكأنَّه كان نائمًا، فأيقظه الربُّ وأصعده. لا شعب واحد هجم على بابل؛ بل شعوب عديدة. فالمندائيُّون والفرس وشعوب أخرى احتلُّوا بابل سنة 539، بحيث تأمَّنت عودة المسبيِّين إلى مدنهم، ومنهم شعب يهوذا الذين عادوا إلى فلسطين ورمَّموا المذبح بانتظار الهيكل والمدينة.

يا للغنيمة الوافرة! فهذه المدينة التي سَلبت المدن والبلدان، جاء من يسلبها. على مستوى التاريخ، نستطيع أن نقرأ الأخبار و(الكرونيكات) التي وصلت إلى العالم اليونانيّ. ولكنّ «الكلمة» تدعو الناس ليصلوا إلى السبب الأوَّل. وهذا واضح منذ بداية هذا المقطع مع صيغة المتكلِّم المفرد: أنا «أوقظ»، أنا «أُصعد». بدا الله مثل قائد حربيّ يقود «جنوده» لكي «يصطفُّوا» للهجوم. ويُذكر «سخط» קֶצֶף الربّ، والنتيجة: الخراب والدمار. وهكذا يرى المارُّون، فيتأمَّلون ويفهمون نهاية كلِّ مدن الكبرياء التي زرعت الظلم والموت والنار في كلِّ مكان. وينتهي هذا المقطع:

آ15 اهتفوا عليها، (دوروا) حواليها
رفعت يدها (استسلمت)
أساساتها سقطت
أسوارها دُمِّرت
هي نقمة الربّ
انتقموا منها
وكما فعلت افعلوا بها.
آ16 اقطعوا الزارع من بابل
وماسك المنجل في الحصاد.

أمام السيف الذي لا يرحم
يرجع كلُّ واحد إلى شعبه
وكلُّ واحد يهرب إلى أرضه.

قصيدتان قصيرتان، «فالكلمة» تتحدَّث إلى بابل، وتكون قصائد أخرى مع رثاء خاصّ ببابل (51: 20)، كما اعتدنا أنْ نقرأ عند حزقيال بالنسبة إلى صور، وفي سفر الرؤيا بالنسبة إلى روما.

ثالثًا: بنو إسرائيل وبنو يهوذا:

في إر 50-51 نحن أمام «دبتيكا» (diptyque)، كما يقال في الليتورجيا: كلُّ درفة تقابلها درفة. وكما قرأنا مقطعين حول بابل، نقرأ مقطعين -أيضًا- حول شعب الله.

أمّا المقطع الأوَّل (50: 4-7) فيصوِّر وضع العائدين من المنفى في حالة يُرثى لها.

4. **في تلك الأيَّام وفي ذلك الزمان**
يقول الربّ
يأتي بنو إسرائيل وبنو يهوذا
معًا يسيرون سيرًا ويبكون
ويطلبون الربَّ إلههم

5. **يسألون عن طريق صهيون**
ووجوههم إلى هناك
يأتون وينضمُّون إلى الربّ
بعهد أبديّ لا يُنسى.

6. **كان شعبي خرافًا ضالَّة**
رعاتُهم أضلُّوهم
وأتاهوهم في الجبال

فساروا من جبل إلى تلَّة
وما تذكَّروا حظيرتهم.

7. **كلُّ الذين وجدوهم أكلوهم**

وكان مبغضوهم يقولون:
«نحن ما أذنبنا (في ما فعلنا)
لأنَّهم أخطؤوا إلى الربّ
مسكن البرّ ورجاء آبائهم
هو الربّ.

من يستطيع أن يتكلَّم عن تلك الأيَّام؟ الله وحده. فهو سيِّد الزمان. وفي هذا الوقت عينه. هو محدَّد في قلب الربّ. يكفي المؤمن أنْ يجعل ثقته بذاك الذي فعل، والذي يفعل اليوم وكلَّ يوم. أوَّل معجزة: المملكتان معًا: إسرائيل ويهوذا، السامرة وأورشليم. منذ الانقسام، بعد وفاة سليمان، كانت الحرب متواصلة بين الجنوب والشمال؛ أخوان عدوَّان. وكان الواحد يستند على الجار؛ ليقهر أخاه، ويقدِّم له الهدايا؛ كما فعل آسا (يهوذا) (1 مل 15: 16ي) الذي استنجد بملك أرام على بعشا؛ ملك إسرائيل.

كم حلمَ الشعبان! قال إرميا: «وفي تلك الأيَّام ينضمُّ بيت يهوذا إلى بيت إسرائيل ويجيئون معًا من أرض الشمال (أي أرض المنفى) إلى الأرض التي امتلكها آباؤهم» (3: 18). وقال إشعيا في المعنى عينه: «ويرفع الربُّ راية في الأمم ليجمع حولها المنفيِّين من بني إسرائيل والمشتَّتين من بيت يهوذا في أربعة أطراف الأرض. فيزول حسد إسرائيل وتضمحلّ عداوة يهوذا، فلا إسرائيل تحسد يهوذا ولا يهوذا تعادي إسرائيل» (إش 11: 12-13).

«معًا يسيرون»، لا في الفرح، بل في البكاء؛ لأنَّهم أضاعوا الربَّ، وخصوصًا أضاعوا الطريق التي توصلهم إلى صهيون، إلى المدينة المقدَّسة، إلى أورشليم. ها هم عادوا إلى الربّ، فهموا أنَّ الأصنام ليست بشيء، وأنَّ

التحالفات والمعاهدات مع سائر الأمم خيانة للربّ. عن هذا الوضع تحدَّث النبيّ (3: 21):

صوتٌ سُمع من الروابي
بكاء تضرُّع من بني إسرائيل

ولو تعرفون السبب! لا طلب المطر، ولا الانتصار على العدوّ؛ بل وَعَوا حالهم:

لأنَّهم حادوا عن طريقهم
ونسوا الربَّ إلههم.

طريقهم رسمها الربُّ لهم منذ عهد سيناء. أخذوا طريقًا أخرى، أو طرقًا، ولهذا قيل: «تشتَّتوا». راح كلٌّ واحد في طريقه، وحتَّى في «سياساتهم» لم يلبثوا «معًا» ܐܟܚܕܐ: كأنَّهم واحد، وراء قائد واحد، في مسيرة البرِّيَّة، كان قائدهم واحدًا؛ وهو الربُّ الذي أرسل لهم موسى، ورافقهم بالغمام في النهار، وبالنار في الليل. حادوا عن هذه الطريق، فتاهوا في البرِّيَّة. والأسوأ من هذا: «نسوا الربّ». نتخيَّل أنّهم تعلَّقوا بعالم بابل وآشور ونينوى؛ تلك الحضارات الكبيرة والغنيَّة، وبأعياد الإله آشور والإله مردوك، بتلك التماثيل، الزهور، الاحتفالات الملكيَّة الرائعة، ومن ثمّ «نسوا». ومع أنّهم رأوه، فقد نسوا وجهه، ضاع وجهه بين وجوه الأصنام الكثيرة في بابل وفي أماكن أخرى؛ ولهذا كان النداء:

ارجعوا أيُّها البنون الشاردون
فيغفر لكم الربُّ شرورَكم (آ22أ)

وكم تمنَّى النبيُّ جوابًا مثل هذا:

ها نحن نأتي إليك
فأنتَ الربُّ إلهنا (آ22ب)

«ويسألون». ولماذا السؤال؟ يكفي أن يوجِّه المؤمنون نظرهم. يكفي أن يميلوا عن الأصنام؛ ليجدوا أنَّ الربَّ ينتظرهم، وما أحلاهم «ينضمُّون»

إليه، كما الخراف حول راعيها. كان عهد في سيناء، فنُقض أكثر من مرَّة. والعهد مع داود ونسله راح في عالم الغيبوبة، فلم يبقَ ملك ولا عاصمة؛ ضياع تامّ. إذًا لا بدَّ من عهد آخر، متجدِّد، فيه يجعل المؤمنون ثقتهم التامَّة بالله.

وضع تعيس كان: خِرافٌ ضالَّة، وما اكتفى الرعاة بأنْ يهملوهم؛ بل «أضلُّوهم»، فما عادوا يعرفون كيف الوصول إلى «الحظيرة»، إلى حيث يربضون، يرتاحون، ويكونون بمنأى من الوحوش الضارية. تاهوا في البرِّيَّة وأتت الوحوش، أي الأعداء من نوع خاصّ، «وأكلوهم». ذاك ما يقول المزمور: «إذا هاجمني أهل السوء، أعدائي والذين يضايقونني؛ ليأكلوا لحمي كالوحوش، ليمزِّقوني» (27: 2).

وحين فعل «الوحوش» ما فعلوا، لم يؤنِّبهم ضميرهم؛ فالربُّ راضٍ عمَّا نفعل. وبما أنَّهم خطئوا إلى ربِّهم، فنحن نعاقبهم؛ بل الربُّ أرسلنا لنكون «قضيب غضبه»؛ نحن لسنا مخطئين. عندئذٍ يناديهم النبيّ، أو «الكلمة»: «تطلَّعوا إلى الربّ، ذاك الذي وضع فيه الآباء رجاءهم، فافعلوا مثلهم، وتابعوا النشيد: إذا هجم الأعداء، فهم يعثرون ويسقطون، إذا اصطفَّ جيش، لا يخاف قلبي. إذا قامت حرب فأنا أبقى مطمئنًّا» (مز 27: 2ب-3). وماذا يتمنَّى هذا الذي يعيش بالتعاسة ويرى نفسه في عالم ظالم؟ «أن يقيم في بيت الربّ» (آ4).

وأمّا القصيدة الثانية (50: 17-20) إلى إسرائيل ويهوذا، فتذكر ملك آشوريا دون أن تسمِّيه. أمّا نحن، فنعرفه من سفر الملوك الثاني (ف 17): شلمنصَّر ثمَّ سرجون الثاني، ثمَّ تذكر نبوخذ نصَّر البابليّ الذي حاصر أورشليم أكثر من مرَّة، وخصوصًا سنة 587-586. وعد الربّ برجوع مملكة إسرائيل إلى جبال أفرائيم، حيث تقيم أكبر قبائل الشمال، فتماهى مع إسرائيل، فالربُّ ينسى خطايا شعبه في الجنوب وفي الشمال، فهو «الربُّ الربّ، إله رحيم حنون، بطيء عن الغضب وكثير

المراحم واللطف. يحفظ الرحمة لألوف الأجيال، ويغفر الإثم والمعصية والخطيئة» (خر 34: 6-7). ذاك ما يكتشفه شعبه بعد الذي حصل لهم في زمن المنفى. وها نحن نقرأ إر 50: 17-20.

17. **إسرائيل شاة ضائعة**
الأسُود أضلَّتهم
تقدَّم ملك آشور فأكله
ونبوخذ نصَّر، ملك بابل
حطَّم له (أي يهوذا) عظامه.

18. **لذلك، هكذا قال:**
يهوه صباؤوت، إله إسرائيل
سأعاقب بشدَّة
ملك بابل وأرضه
كما عاقبتُ ملك آشور

19. **وأعيد إسرائيل إلى مراعيهم**
فيرعى في الكرمل وباشان
وفي جبل أفرائيم
وفي جلعاد تشبع نفسُه

20. **في تلك الأيَّام وفي ذلك الزمان**
يقول الربّ
يُطلَب ذنب إسرائيل
ولكنَّه زال
وخطايا يهوذا
ولا تجدونها
لأنِّي أغفر

للباقين في الحياة.

نعود -هنا- إلى موضوع الخراف، كما إلى موضوع الوحوش؛ فالأسود هم هنا، ونحن نعرف أنَّ أبواب الآشوريِّين تستقبل الآتين مع أسد إلى اليمين وآخر إلى الشمال، إسرائيل «شاة» שה في العبريَّة، وفي السريانيَّة: ܥܢܐ، فالأنثى من «أم» أو «بنت» تدلُّ على الشعب. أمّا الصفة التي ترافقها فهي «ضائعة» ܛܥܝܬܐ في السريانيَّة، وكذلك في اليونانيَّة πλανομενον . أمّا في العبريَّة فنقرأ פזורה من פזר؛ أي شتَّت. قد نكون أمام صيغة الجمع: خراف مشتَّتة؛ ما يعني أنَّها ضالَّة.

وفي السريانيَّة، الأسُود «أضلَّت بهم» ܐܛܥܝܘܢ. وفي العبريَّة: «ردّتهم أو طاردتهم הדיחום». وفي اليونانيَّة: دفعتهم εξωσαν. وعلى أيِّ حال، فقد طُرد الخراف من حماية الربّ؛ فهي إشارة إلى المنفى الآشوريّ والمنفى البابليّ. ماذا فعل ملك آشور؟ «أكل» الشعب. وملك بابل؟ «جرفه»، حطَّم عظامه. وأمّا السريانيّ (ܥܨܐ) فخفَّف المعنى: كان شديدًا عليه.

فالعقاب ينتظر هذين الملكين؛ بل إنَّ ملك آشور «أكله» ملك بابل، وهذا ما عرف به إرميا؛ وهو العائش في نهاية القرن السابع وبداية السادس. ويبقى ملك بابل، ولن يكون مصيره أفضل من مصير آشور פקד: افتقد، عاقب، جازى الشرّ بالشرّ.

إذا أراد الربُّ أن يخلِّص الضعفاء، ينبغي أوَّلًا أن يزيل الظلم عنهم. ولكن بما أنَّ الظالمين يبدون كالوحوش، لا يتخلَّون عن فريستهم بطيبة خاطر؛ ينبغي على الله أن «يحطِّم» هؤلاء الأقوياء. وبعد ذلك، يرجع الربُّ، فيعيد بناء شعبه في أرضه. هي أرض جبليَّة فيها المراعي: «الكرمل»؛ أي الحديقة والبستان. جبل يطلُّ على البحر، و «باشان» يشير إلى الخصب؛ حيث يَسمن القطيع. قال عنه المزمور: «جبل باشان يا جبل الشموخ! جبل باشان يا جبل الأعالي» (68: 16). اشتهر بمراعيه فقال فيه سفر التثنية: «وزبدة البقر ولبن الغنم وشحم الخراف وكباش باشان» (32: 14). وكيف

ينسى النبيّ «جبل أفرائيم» الذي يشكِّل في فلسطين العمود الفقريّ. أمّا هناك فكانت قبيلة أفرائيم كبرى قبائل إسرائيل، وهي تنتهي عند حدود العائدين في «جلعاد»، الواقع إلى ضفَّة الأردنّ الشماليَّة، وتنتهي آ19 مع فعل «شبع»، كما انتهت أيَّام الجوع في زمن العبوديَّة؛ كلُّ خيرات الربِّ تُعطى للذين وجدوا أخيرًا «الطريق إلى صهيون».

ونعود -هنا- إلى بداية المقطع الأوَّل الموجَّه إلى إسرائيل (50: 4): تحديد الأيَّام والوقت، عند ذلك يأتي الربّ. هؤلاء مضوا إلى المنفى، واعتبروا أنَّهم نالوا ما نالوا بسبب خطاياهم. وبما أنَّ الربَّ حضر؛ ينبغي على كلِّ إنسان أنْ يُقرَّ بذنوبه وخطاياه. قيل له: «حادوا عن الطريق» (إر 3: 22)؛ لا! هم في الطريق؛ يسيرون وراء الربِّ راعيهم. والأسود؟ لا مكان للأسود؛ بل الربُّ يكون ذاك الأسد، فنقرأ في هو 11: 10: «يسيرون وراء الربّ، وهو يزأر كالأسد. يزأر فيُسرع البنون إليَّ من جهة البحر. من مصر يسرعون إليَّ كالعصافير، ومن أرض آشور كالحمام، فأعيدهم إلى بيوتهم، أنا الربّ».

ولكنّ الأمم تقول: نحن رأينا «ذنب إسرائيل» و «خطايا يهوذا»، تعالوا، أتوا وتحقَّقوا، لم يجدوا شيئًا، ما الذي حصل؟ غفران الله فعل فعله وما ترك أثرًا؛ فالربُّ لا «يرقِّع»، بل يخلق كلَّ مرَّة يرحم، كما قال المزمور: «قلبًا نقيًّا أخلق فيَّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدِّدْ في أحشائي» (51: 12).

«ذنب إسرائيل»؟ איננו: «ليس هو» لا وجود له. ܠܝܬܘܗܝ (في السريانيَّة). «خطايا يهوذا»؟ ابحثوا، فلن تجدوها (מצא). قال العبريّ والسريانيّ: الله غفر. وتحدَّث اليونانيّ عن الرحمة واللطف ιλεως. هو سرُّ الغفران، لا بسبب استحقاقاتنا؛ بل لأنَّ الربَّ هو أبٌ وأمّ، هو العطاء المجَّانيّ، والذي غفرانه يسبق كلَّ ما يصدر من الإنسان.

وهكذا جاء النصّ الذي قرأناه: عقاب القويّ ومساعدة الضعيف. وعلى أيِّ حال، لا يحابي الله الضعيف؛ اهتمَّ بالمنفيِّين في بابل، لا الآتين من إسرائيل ويهوذا فقط، بل من جميع الشعوب التي عرفت العنف الهاجم

«من الشمال»، وسيكون لنا خبر يونان مع التوبة والغفران، ومصر نفسها سوف تصرخ من الضيق، فيخلِّصها الربّ.

خاتمة:

إذا كنَّا نؤمن بأنَّ الربَّ هو الإله الحيّ، فكلمته تكون حيَّة. فإنْ عجزت كلمته جعلناه «صنمًا» في أعلى السماء، أو ملكًا من ملوك هذا الزمان. لا شيء يبدِّله، لا شيء يفرحه أو يحزنه. لا! لم تنزل كلمة الله قطعة واحدة مثل جبل الثلج! في لغة محدَّدة هي العبريَّة أو اليونانيَّة أو السريانيَّة أو العربيَّة، اعتبر العبرانيُّون أنَّ نصَّ التوراة لا يمكن ترجمته. والسريان قالوا إنَّ الله تحدَّث مع آدم بلغتهم، واعتبر اليونان أنَّ السبعينيَّة لا تتبدَّل، فلبثوا يرفضون -حتَّى منتصف القرن العشرين- أنْ يُقرأ الكتاب المقدَّس على الشعب إلاَّ في هذه اللغة التي لا يفهمها الناس. وكذا نقول على الأرمن الذين لا يزالون متعلِّقين بنصٍّ كتابيّ، بيبليّ، يعود إلى القرن الرابع، وقد أرادوا أنْ يطبعوه كما هو في القرن العشرين.

أمّا الكتاب المقدَّس، في العمق، فلا يمكن أنْ يكون قلعة مغلقة ندور حولها ولا نجرؤ على الدخول إليها؛ فالله الذي يضع معرفته في القلوب يسمح للقلوب أنْ تكتبها في زمن معيَّن وفي مكان معيَّن. وبما أنَّ البشر كتبوها، فقد صارت كلمة بشريَّة نحاول أنْ نقرأها، نشرحها، نفهمها في الإطار الذي كُتبت فيه. ولكنْ إذا تبدَّل الإطار فالمعنى لنْ يتطوَّر؛ إنَّما يغتني، فيجعل الكاتب هذا النصَّ «الإلهيّ» يغذِّي المؤمنين في أيَّامه؛ فشارح الكتاب المقدَّس ليس عالم آثار، بل همُّه أنْ تصبح كلمة الله حاضرة، حيَّة، فاعلة، في هذا الآن وفي هذا المكان.

في هذه الروح قدَّمنا هذا النصَّ الإرميائيّ؛ وهو في الأصل توجَّهٌ إلى مملكة إسرائيل التي سقطت بيد الآشوريِّين سنة 722-721، حيث دُمِّرت العاصمة ومات من مات، وراح الناس إلى السبي في عمليَّة تبديل السكَّان بحيث تموت روح الثورة في الشعوب. تبعثر سكَّان مملكة إسرائيل في

العراق الحالي، ولاسيَّما في الشمال، وأتى محلَّهم من بابل وكوت وحماة. كما أتى العويدون والسفروااليميُّون (1 مل 17: 30ي). ولكنّ ما فعله الآشوريُّون لسكَّان الشرق، أتى منْ يفعل فيهم الأمر عينه؛ ففي سنة 614 أتى الميدايُّون على مدينة آشور، فسلبوا ونهبوا وقتلوا. وسنة 612 سقطت نينوى بيد البابليِّين والميدايِّين. وإذا كانت آشور قد استطاعت أنْ تخرج من كبوتها سريعًا، فإنَّ نينوى ستبقى خرابًا وتتحوَّل بعد أجيال إلى قرية صغيرة.

عن سقوط نينوى عاصمة الإمبراطوريَّة الآشوريَّة تحدَّث ناحوم ورثاها. فجاء من يبشِّر يهوذا بالسلام الآتي ويدعوها إلى العيد (1: 15). وتحدَّث إرميا عن الآشوريِّين، وما حصل لهم كان في أيَّامه؛ فذكر آشوريا مرَّتين هنا (50: 17-18) وما عاد يذكرها، كما لم يذكر آشور مرَّة واحدة، وهذا يعني أنَّ خبر سقوط الآشوريِّين صار قديمًا، ولا بدَّ من تأوين النصّ بالنسبة إلى مملكة يهوذا التي جاءها البابليُّون.

هنا يأتي دور تلاميذ إرميا الذين رأوا دمار بابل، فتحدَّثوا عنه، وتطلَّعوا إلى خلاص شعبهم الذي لا ينحصر في يهوذا؛ بل يضمُّ أهل المملكتين الذين مضوا إلى المنفى الآشوريّ والبابليّ. قد يكونون استعادوا ما كتبه إرميا وطبّقوه على وضعهم وأعادوا الأمل إلى الشعب.

وإرميا نفسه عرف نسخة قصيرة نُقلت إلى اليونانيَّة، ثمَّ نسخة طويلة هي التي ثبَّتها الماسوريُّون؛ بحيث وصلت إلينا في القرن التاسع المسيحيّ؛ ولكنْ لا ترجمة حرفيَّة في العالم القديم، بل قراءة جديدة، وكدتُ أقول «وحيًا إلهامًا» جديدًا، فالسبعينيَّة أعطت وصفين لمردوك απτοητος: هو صنم واقف، لا يسقط α–πιπτω. ثمَّ τρυφερα: الشهوانيّ، الذي يدعو إلى ممارسة الزنى والبغاء؛ كما اعتادت بعض العبادات السرَّانيَّة أنْ تفعل. أمَّا السيف القاسي، الجائر، الذي يحمل التعاسة، فصار السيف اليونانيّ؛ وكأنَّ أداة انتقام الله من بابل جاءت من الهلِّنيِّين الذين أتوا مع

الإسكندر. والسريانيَّة البسيطة أعادت قراءة النصّ العبريّ ولبثت قريبة منه، ولكنَّها بسَّطته وبدَّلت بعض الأمور؛ ليستطيع شعب الرها ونصيبين وسائر المدن أنْ يفهمه ويطبِّقه على حياتهم.

عمق النصّ لا يتبدَّل؛ لأنَّه في الأصل وحيٌّ من الله لأحد أنبيائه؛ لكنَّ تطبيقه على السامعين يأخذ منحًى آخر. ولهذا، نستطيع نحن أنْ نقرأه اليوم ونفهم أنَّ الله يُنزل المتكبِّرين عن الكراسي ويرفع الوضعاء، اليوم وكلَّ يوم. لقد كان تلاميذ إرميا من «مساكين الربّ» الذين هنَّأهم يسوع ووعدهم بملكوت السماء. ونحن نستطيع أنْ نكون من تلاميذ إرميا، أو من سامعي «الكلمة» التي لا تزال حاضرة، حيَّة، فعَّالة، وأمضى من كلِّ سيف ذي حدَّين، خارقة إلى مفرق النفس والروح» (عب 4: 12)، أمامها لا قناع ولا اختباء؛ بل «كلُّ شيء عريان ومكشوف» (آ13). هي هي في الماضي واليوم وكلَّ يوم؛ لأنَّها في النهاية شخص يسوع المسيح الذي «هو هو أمسِ واليوم وإلى الأبد».